أوراق في سوسيولوجيا الاقتصاد السياسي

# د. مظهر محمد صالح*: دراما الشرق: مقدمة في اجتماعيات علم الاقتصاد السياسي

١-تمهيد

في حوار سوسيو اقتصادي عرض المفكر البصري المهندس مصطفى عبد الحسن حوارا مهما تناول فيه موضوع الطبقات والفقر وايديولوجيا الموروثات المجتمعية والذي نصه:

((الدولة على رأي الراحل الدكتور عصمت سيف الدولة أداة إدارة شؤون الأفراد والجماعات الاجتماعية، وهي وسيلة قهر طبقي عند الماركسيين، وعلي عليه السلام يوما قال (لا بد للناس من إمارة برة أو فاجرة).

لدينا دولة توافُق بين مجاميع تدعي تمثيل كيانات اجتماعية لا طبقية، وهي حتى هنا لا تمثلها بل تفتعل صراعا اجتماعيا بين مكونات قد تتوحد طبقيا ضد الاستغلال بغض النظر عن المذهب الديني لمن يستغل المواطن الفقير.

دولة تعمقت على هذا الأساس منذ 2003 كما أريد لها وهي ليست دولة البروليتارية الماركسية أو الشعب العامل الناصرية، ولا حتى الرأسمالية واضحة الهوية والمعالم بسوقها الحر غير الاحتكاري، ولا حتى الدولة الإسلامية التي شاء لها أبو القاسم (ص) حين أقام لبنتها الأولى في المدينة، لكنها سلطة هجين تداولت الحكم معتمدة على قصور الوعي لدى جمهور واسع، واستثمرت لعبة الصندوق الانتخابي الفارغة من مضمون الديمقراطية الحقيقية)).

٢- جلال امين في التنمية الاقتصادية والازدواجية الاجتماعية. قد لا ابتعد في المسافة الفكرية بين ما كتبه الاقتصادي المصري الراحل جلال امين في واحدة من روائع كتاباته المنشورة قبل سنوات في صحيفة الشروق المصرية والتي جاءت تحت عنوان (التحدي الاكبر امام اي رئيس مصري جديد) وبين ما عرضه المفكر مصطفى عبد الحسن عندما تناول الراحل

# أوراق في سوسيولوجيا الاقتصاد السياسي

عصمت سيف الدولة صاحب كتاب الطريق: إلى الديمقراطية ... إلى وحدة القوى التقدمية، وعلى وفق ما ورد نصه في التمهيد آنفا. اذ لم ابتعد عنهما في تفسيرهما لظاهرة التخلف الاقتصادي المقيدة بالازدواجية الاجتماعية وانقسام المجتمع، كما ساقتها ادبيات التنمية في خمسينيات القرن الماضي الى قسمين، وعُدَّ ذلك خصيصة من خصائص الدول المتخلفة وتبعثر التنمية الاقتصادية فيها ولاسيما النظر الى مظاهر الحضارة الغربية وحجم الابتعاد او الالتصاق بين فئات المجتمع الواحد والذي يفسره البعض الى الاختلاف في النظرة الى الدين في المجتمع ومحاولة تقسيمه بين: علمانيين ملتصقين بالمركز الاوربي او الغربي سلوكا مميزا لهم وبين الملتصقين بحاجز الدين وانغلاق مريديه الى الداخل.

فالمجتمع كما يراه جلال امين مازال منقسما بين فريقين انقساما رهيبا اسبغ مشكلات جمة على حياة الناس الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في تفسير الحرية والخبز والعدالة الاجتماعية وفي نوع الاتصال والتواصل بالمدنية الغربية. مهما قاله جلال امين، فإنه لم يبعدنِ كثيرًا عن ذلك الحوار المُركز الذي استخلصته قبل اكثر من خمسة عقود ونيف من الزمن مع زميلي في الجامعة الذي كان ماركسيا من الطراز الاول ولكن ملتصقًا بصفوف شغيلة بلادي وفلاحيها وكسبتها في تلك الايام الساخنة التي كان يعيشها العراق في اقوى عصوره (ادلجةً)، في حين كُنت من اشد الملتصقين في الجانب الاخر من الخيال الآيديولوجي للمادية التاريخية والحركات المجتمعية عبر الالتصاق بالمركز الغربي وخيال الفكر ومناخ الفلسفة الاوربية في انقطاع رهيب عن تلك الجموع التي كان يلتصق بها زميلي، في حين ان كلانا كان يمارس الازدواجية ولكن بنمطين مختلفين كما اشرنا. واللافت ان كلانا كان موحدا بنظرته في تفسير ظاهرة الازدواجية في مجتمعاتنا المشرقية على الرغم من اننا مستقطبين ايضا في معسكر الازدواجية الاجتماعية بطرق قد يختلف فيها احدنا عن الاخر سواء في الهوية القومية او الطراز المذهبي او غيرها من انماط ضعف هذه البلاد وتفكك تجانسها. فبالقدر الذي التحمنا فيه نحن الاثنين في نسيج عابر للطوائف والقوميات والمذاهب، اذ يلتصق صاحبي بقوى الشعب المنتج وانا التصق تلقائياً بإشعاع الفكر الفلسفي الاوربي في تفسير حركة التاريخ

وتطور المجتمعات، الا اننا كنا متفقان بأن الرأسمالية في بلاد ما بين النهرين هي الاخرى موحدة في معسكرها وعابرة للطوائف والقوميات تجمعها مصلحة واحدة هي تراكم رأس المال الذي يميل نحو الألفة والاتحاد حسب مركز المصلحة مع ممارسة الانعزال الشديد بالجزء الاخر من المجتمع مما يوفر استمرارا وتطورا في الازدواجية المجتمعية.

وبعد ان انتهيت من زميلي وغادرنا سوية محاور لقائنا، اتجهت هذه المرة (انا ورأس المال) في الذوبان في بوتقة الالتصاق بالمركز الرأسمالي والفكري الغربي ولكن بطريقتين علمانيتين مختلفتين، فهم بدون شك شلة من مالكي رأس المال التجاري الذي نسميه برأس المال (الكومبرادوري) وهي الظاهرة التي يلتصق فيها رأس المال الشرقي بالمركز الرأسمالي الغربي ويتجانس معه في المصلحة وينفصل عن حركته الاجتماعية لترسيخ حالة الازدواجية، وانا من جانبي غارق في خيال العلمانية وملتصق بآيديولوجيا الصراع في المركز الاوربي العريق الثقافة كي انعزل عن حركتي المجتمعية بأنانية برجوازية خطيرة الميول! وعلى الرغم من ذلك، نجد ان الرأسمالية الشرقية الموحدة والمتجانسة فيما بينها والملتصقة بالمركز الغربي والمعزولة بأسيجة قوية وساخنة عن مجتمعاتها ضمن ظاهرة الازدواجية الاجتماعية، تجدها تلتحم ببرود مع النصف الاجتماعي الاخر تارة وتمارس ميول دينية ومذهبية وقومية ساخنة وتنتزع ثوب علمانيتها وتنفصل عنه تارة اخرى في اغتراب خطير وبمستوى لم يسبق له مثيل في حركة وجودها التاريخي، وحسب مركز مصلحتها وديمومة الانفصال بين الفريقين الاجتماعيين، اذ امست تلك الرأسمالية تمارس ازدواجية ديناميكية للتخفيف من غربتها مع المركز الاوربي، كلما كانت في حاجة لتلتحم مع التناثرات الاقتصادية والاجتماعية في هوامش بلدانها ما يعزز وجودها وديمومتها والقدرة على الاستغلال ومصادرة الفائض الاقتصادي من جموع انهكتها صراعاتها و هي ماتزال منغمسة في تفسير ظواهر الميتافيزيقيا او ما وراء الطبيعة.

٣-مازلنا نحن شعوب الشرق نعيش تصورا مبهماً في انفصال المجتمع وازدواجيته بين فئة علمانية ملتصقة بالمراكز الغربية ومدنياتها تدعي

الانفتاح نحو الخارج وبين فئة دينية تعيش الدين في أفق الشرق المغلق، وفي الاحوال كافة نجد في هذا التوصيف للازدواجية ابتداع اخذ يغلف مكنونات صراع الطبقات وتذويب الاستغلال في حاضنة افتراضية من حواضن البنيان الفوقي (كما يحلو للماديين التاريخيين تناوله) لنسيان الصراع بين القوى المستغِلة والقوى المستغلَّة. وان من يريد ان يرتقي من القوى المسحوقة الى مصاف القوى الساحقة، ليلغي ازدواجيته الطبقية، عليه ان يتخلى عن مكنوناته الدينية ويتمتع بعلمانية منقطعة النظير والذوبان في مُسخراتها الايديولوجية وان كان مفلساً تسحقه ميادين الانتاج او ضياع فرصة الإنتاجية وتدهور عيشه وفقدان الامل في المستقبل. وبالطبع، فإن ما يسري على الفقراء في الدين لا يسري على اغنياء الدنيا في محاور العلمانية. انه انفصال اولئك الفقراء المتطلعين من داخل المجتمع الادنى وملتصقين بالمجتمع العلماني الاعلى في حاضنة الجذب، اسمها المركز الرأسمالي الغربي وهي تحاول تخطي ازدواجيتها الطبقية بهذه الطريقة المخجلة. وعندها ستكون العلمانية الفقيرة تابعة في ازدواجية اخرى عمودية في التصاقها مع رأسمالية تتجاهلها وهي في الوقت نفسه منفصلة عن واقعها الطبقي. وهكذا يجري تغليب صراع الطبقات كما تراه المادية التاريخية في الشرق وتحويله الى ازدواجية طبقية تحدث صراعا مخيفاً بفعل الانغلاق الديني او المذهبي وولوج عصر دول الطوائف او العصبيات القومية في اخطر ازدواجية اجتماعية ينال الشرق القسط الاعظم منها في الوقت الحاضر.

٤-هالني للأسف الشديد ما كتبه جلال امين وهو يتناول تلك الازدواجية التي يصطدم فيها مجتمع العلمانية ومجتمع التدين دون المساس بصراع الطبقات موضحا كيف تتفاعل وتتنافر تلك القوى داخل المجتمع المصري في يومنا هذا. قد نجده مصيباً على مستوى البنية الافقية المجتمعية في تناوله مسألة القوى العلمانية بكونها القوى الاجتماعية التي تغترب عن مجتمعاتها وهو يتحدث عن حال مصر حين ارتهنت تلك القوى الى مدنيات وثقافات خارج البلاد وخلق حاضنة سريعة التواصل لا يوفرها المجتمع الديني داخل البلاد وعشوائياته وارياف مصر وصعيدها، وان من يبلغ

المدنية وولوج التقدم عليه ان يقلع عن واقعه الديني ويبدأ بعلمانية تذوب في اوكار المركز الصناعي الرأسمالي الاول.

في اعتقادي كان على جلال امين ان يبحث مسألة الاغتراب المجتمعي كظاهرة لهذه الازدواجية المجتمعية في بنيان مصر الفوقي القائم على علاقات انتاج شرقية النمط عظيمة الاستغلال! اذ يقول جلال امين ان التحدي الاكبر لأي رئيس جديد لمصر هو التصدي لهذه الازدواجية، وسوف يدهش القارئ ان من الممكن ان يعرف ان التصدي لبعض المشكلات الكبرى في تلك البلاد هو في حقيقة الامر التصدي لازدواجيتها، ويقول الكاتب ان علاقة الازدواجية بمشكلة توزيع الدخل هي علاقة واضحة وان القضاء على الازدواجية هو مدخل لعلاج مشكلة البطالة على سبيل المثال (ففي العمالة والبطالة ايضا ازدواجية بغيضة). كذلك فإن النمط الامثل لتوزيع الاستثمارات (جغرافيا بين القطاعات الاقتصادية) وعلاج مشكلات التعليم والاعلام والقضاء على الفساد في الادارة الحكومية (اذ لا يمكن ان نتعقب فساد الموظف الصغير ونترك فساد الطبقة المحظوظة والمسؤولة عن منظومة الفساد). وان هذا المدخل في الاصلاح هو افضل بكثير من الاعتماد على ذاك المؤشر السقيم في نظرية التنمية: تنمية الناتج القومي ومتوسط الدخل، فقد تبين الان ان هؤلاء الذين اكدوا على مشكلة الازدواجية في البلاد الفقيرة منذ نحو 60 عاما كانوا اقرب الى الصواب من هؤلاء الذين لم يكفوا طوال هذه الفترة عن تحقيرنا كما يقول جلال امين، مرة بتسميتنا بلادا متخلفة وعن تملقنا مرة بتسميتنا بلادا نامية بينما يقدمون لنا نصائح بالتركيز على رفع معدل نمو الناتج القومي، فلا نزداد نتيجة لذلك إلا بؤساً!

٥- على الرغم من ان رأسمالية وادي الرافدين لا تختلف كثير عن رأسمالية وادي النيل، فهي رأسمالية عابرة للطوائف وعابرة للقوميات وموحدة للمصالح، الا انها تتعايش ايضا على بؤس الازدواجية المجتمعية (من وجهة نظر جلال امين وليس من وجهة نظر المادية التاريخية) اذ تتعمق تلك الرأسمالية الى الداخل المنغلق وتسعى الى الغاء حواجزها المزدوجة كلما رأت ثمة حاجة لتلبس الكثير من اغطية المذهبيات والقوميات والعقد

العقيمة لتلتحم مع الطائفة والمذهب والقومية عندما تجد ذلك مسوغا يخدم مصالحها بجرعات تصلح لديمومتها في معسكر وحدتها حالما تريد ان تمارس لعبة الازدواجية ثانية، لتقوي عزلتها عندما يحين وقت التراجع والتوحد في مراكزها المنسجمة العابرة للطوائف والقوميات بعلمانية عالية تلتصق بمراكزها الغربية لتترك المجتمع الديني المتهالك يتناحر في صراعات مذهبية وعرقية لانهاية لها ولا يفهم من هم مستغليه حقا.

ان ما أريد ان اضيفه الى اطروحة جلال امين او حتى عصمت سيف الدولة في نصوصه الرائعة التي جاء بها المفكر مصطفى عبد الحسن حول فقدان تحليل صراع الطبقات برؤية المدرسة الاخرى في التنمية، لابد من ان انوه ان اسباغ الطبقات المسحوقة بآيديولوجيات مغلفة بأباطيل فكرية مختلفة يأتي لضمان حركة الانقسام في صفوف الطبقات المسحوقة وخلق التناحر الابدي بينها، كي تبقى الازدواجية الطبقية في وضعها الراهن المشتت والمصادر تاريخيا ويبقى رأس المال الكومبرادوري موحدا في استغلاله وباستمرار طالما يتعايش على ازدواجية المجتمع المسبوغ بالانقسام العمودي بين الدين والعلمانية من جهة وبين الانقسام الافقي المذهبي والعرقي من جهة اخرى ليدق اسفينا في مستقبل تنمية بلادنا، واصفا اياه مجازاً بـ: مسرحية الشرق او دراما الشرق!

٦-ختاماً، اذا كانت شعوب الشرق في ثوراتها قد رفعت شعار (يا عمال العالم اتحدوا) فإنها ربما كانت تدرك ان الازدواجية في مجتمعاتنا الشرقية قد آلت الى توليد التفكك الذي اصاب الطبقات الفقيرة وتشظيتها في معادلة البؤس المذهبي والتعصب القومي شديد التنافر والتناحر، متناسية في نفسها لقمة العيش ودرجة استغلالها لتدخل في خيالات التفكك والانقسام الى مالانهاية. انه مسرح الشرق الذي يعمق الفقر والاستقطاب نحو عدمية عالية ويقوي كثافة رأس المال باستمرار عبر تلك الازدواجية الاجتماعية المريرة، وخلق قطبين متنافرين الاول مالك شرقي شديد الثراء علماني في ايديولوجيته تستقطبه الاحادية المركزية الرأسمالية الغربية، والاخر شديد الفقر تمزقه الاباطيل الطائفية او المذهبية او القومية ومختلف العصبيات التي تأتي تحت غطاء الدين او العرق وان الفاصل بين الطبقتين بهذه

# أوراق في سوسيولوجيا الاقتصاد السياسي

الازدواجية التي لم يتناولها جلال امين هي ان الطبقة العليا لا تعيش الا على سحق رغيف خبز الطبقة السفلى في صراع آيديولوجي مزدوج لم ينتهي، اذ غلف الاول اسمه بعلمانية الاغنياء وغلف الاخر نفسه بصراع الاديان والطوائف والاعراق ليكون متعة لصيقة في سذاجة الفقراء! ■

(*) باحث وكاتب اقتصادي اكاديمي والمستشار المالي والاقتصادي لرئيس الوزراء العراقي

حقوق النشر محفوظة لشبكة الاقتصاديين العراقيين. يسمح بإعادة النشر بشرط الاشارة إلى المصدر. 19 شباط 2022

http://iraqieconomists.net/ar/